

ستيف سايبلا ... من القدس إلى المنفى!

نجوان درويش



في عمله الأخير "منتالوبيا" Mentalopia، يبتكر الفنان ستيف سايبلا (1975) مفردة جديدة ... اسماً لعمله الذي يتكوّن من بورتريهات فوتوغرافية لمجموعة من أقرانه الفنانين من بلدان مختلفة. كلمة منتالوبيا بخلاف بوتوبيا - التي اشتقت منها - تتشاكل مع المفهوم المكاني لليوتوبيا، وتراهن على الحالة الذهنية بوصفها اليوتوبيا الوحيدة الممكنة ربما ... في الفن على الأقل.

مزج سايبلا البورتريهات التي التقطها لمجموعة فنانين حول العالم، بطوابع بريدية كأنما يتبادلون عليها بلدانهم. هكذا، نرى الفنانة اللبنانية لميا جريج على طابع بريدي فلسطيني يحمل صورة القدس، فيما نشاهد ستيف نفسه على طابع لبناني. أما بقية الفنانين فقد مزج طوابعهم بشكل عرضي تارةً، وبشكل

ينطوي على مقاصد طوراً: وإذا بالفنانة التركية تجد نفسها على طابع أرمني، فيما الفنان الأرمني وجد نفسه على طابع أذربيجاني، وهكذا دواليك ... إنها فكرة ارتجاج الهوية، من خلال التلاعب بسكونها الذي تمثله الطوابع البريدية. هنا، يبدو الطابع - الذي هو أصلاً تمجيد لمكونات الهوية - سؤالاً لعباً وجارحاً عن الهوية والتجاور والحوار. والأفكار هي حصاد ورشة احتضنتها في إسطنبول بعنوان "جبران في حوار"، وشارك فيها 10 فنانين من دول متجاورة، أنتج كل منهم عملاً خلال إقامته التركية. وهذه الأعمال سنُقدّم إلى "متحف سراييفو للفن الحديث" هذا الشهر، حيث سيعرض سايبلا مشروعه "منتالوبيا" مع أعمال الفنانين الآخرين.

يجمع "منتالوبيا" المستويين البصري والمفهومي. فالحلّة البصرية/ التقنية للفكرة متماسكة التكوين، بخلاف الكثير من النتاج "المفهومي" (conceptual) الذي يستسلم هذه الأيام للسهولة والركاكة، ويرتجل "صرعات" غير موظفة فنياً، فضلاً عن الضعف التقني في التنفيذ. الشغل على الطوابع البريدية، هو بحد ذاته مقارنة نقدية لأحد مظاهر الفولكلور في زمن العولمة والبريد الإلكتروني، مقارنة تخلق مجالاً لتوليد أسئلة عن الهوية والحدود والسلطة والهيمنة والزمن. وإذا تذكرنا أن "الإمبراطورية البريطانية" كانت وراء إصدار أول طابع العام 1840، فسنفهم تلك العلاقة الخفية بالتاريخ التي جعلت سايبلا يتطرّق ضمناً إلى فكرة الكولونيالية من خلال طابع البريد. والمشروع الذي يستمد نسغه من الطوباوية الذهنية، يطرح، أيضاً، أسئلة الراهن الفلسطيني، والتشوق الطبيعي للوحدة والتكامل مع بقية الجسد العربي. وهي هنا أسئلة طبيعية يطرحها فنان خارج الإيديولوجيا، وبعيد كل البعد

عن الشعارات. فوضعه مثلاً صورة لفنانة لبنانية على طابع للقدس، يشي بحال التفاؤل التي سادت الشارع الفلسطيني أثناء صد المقاومة اللبنانية للعدوان الإسرائيلي الصيف الماضي. وكذلك الأمر مع وضعه لصورته الشخصية على طابع لبناني عن "مباراة بطولة البريدج" يعود إلى العام 1965. لكنّ سايبلا تلاعب في تاريخ الطابع؛ إذ حوله في السطر المكتوب بالعربية إلى 1975 أي تاريخ ميلاده هو، بينما حافظ على السطر الأعلى بالفرنسية الذي يشير إلى تاريخ الطابع الأصلي.

قبل سفره إلى إسطنبول، تجوّل سايبلا في القدس محاولاً العثور على موضوع عمل فني يستلهم فكرة "جبران في حوار" من خلال تاريخ القدس. أي جبران وأي حوار ... سأل نفسه مراراً وسأل من حوله. أبرز الاقتراحات التي قدّمت له هي أن يشتغل على الموروث العثماني في القدس المليئة بآثار تلك "الجيرة" الإشكالية ... القريبة جداً والنائية في ذات اللحظة. فالمواد الخام كالأثار المعمارية العثمانية التي تملأ القدس أو حتى تلك الوفرة من المخطوطات العثمانية في مكتباتها وأطلال العلاقة بين القدس وإسطنبول؛ جميعها تغري فناناً من القدس

باستثمارها في عمل فني. او هذا على الأقل كان راي فنان شغوف بالتاريخ الحضاري لمدينة القدس مثل كمال بلاطه. ولكن ساييلا بعد أن حاول تناول فكرة الاشتغال على أثر مشترك بين القدس واسطنبول، وبعد أن فكر بأشياء مثل العمل على بوابتين واحدة في القدس وأخرى في إسطنبول صممهما معماري واحد هو "سنان باشا". وصل في النهاية إلى نتيجة مفادها أن لا علاقة ذاتية تربطه بالموضوع وأن تجربته الشخصية لا تغدي اختياره للموضوع، الذي قد يكون جذاباً من الناحية الثقافية؛ لكنه لم يمس ستيف شخصياً وبالتالي لا سبيل لمقارنته في عمل فني ... وسرعان ما بدأت أسئلته الذاتية، التي تبرز نزوعه المثالي الحالم، في الظهور وسرعان ما أوصلته إلى "متالوبيا".

(Mentalopia) جاء ليعكس أحد الأسئلة الأثيرة لدى هذا الفنان، ألا وهو سؤال الهوية الفلقة: منذ معرضه الفوتوغرافي الأول "بُحث" (1997) والثاني "هوية" (2001)، بدأ ساييلا مشغولاً بفكرة الهوية والبحث عنها في زمن الاستلاب، و"الأسرلة" التي تعرض لها جيل من الفلسطينيين ولدوا تحت الاحتلال - وخصوصاً في القدس - وعاشوا عند حافة "الزمن الإسرائيلي" الذي لم تُدرس بعد تأثيراته السوسولوجية والنفسية على المجتمع الفلسطيني - بل ويفضل التيار العام تجاهلها! - ولعل الفولكلور الشعراي أعفانا لفترة طويلة من النظر إلى المرأة وملاحظة الشروح التي أصابت الهوية، فالهوية الفلسطينية في القدس وبقيّة فلسطين المحتلة ليست البكر المصون كما أخبرنا الشعراء الغنائيون!

في السنوات الخمس الأخيرة، وصل ستيف إلى تحوّلين في أعماله، الأول على مستوى المضمون. إذ ظهر الموضوع الجمعي أو الوطني في أعماله ... وبدا كأنه خرج من ذاتية أعماله الأولى. ولا شك في أنّ ذلك يرتبط بتطور وعيه السياسي، بعدما دفعته أعماله الذاتية لأن يكون جزءاً من المشهد الفني الفلسطيني. في "حتى النهاية ... روح المكان" (2004)، جمع أحجاراً من مناطق من القدس، يشعر بأنّها مناطق الشخصية. ثم التقط صوراً من تلك الأماكن، وقام بتظهير الصور على الأحجار التي عرضها مرفوعة (مصلوبة؟) على قضبان حديدية. بعدها قدّم مشروعاً بعنوان "كان ياما كان" (2005)، يستلهم فكرة "صندوق العجب": خمسة صناديق مستطيلة في كل منها عرض صوراً تروي حكاية محددة، على المتلقي أن ينظر إليها من الثقب. وكى يؤكد البعد الشعبي والجمعي لصناديقه، طلب الفنان من خمسة تشكيليّين مختلفين أن يرسموا الحكاية على سطح الصندوق.

أما التحوّل الآخر فكان فنياً. إذ راح يتجاوز نفسه ويخرج من دور "المصوّر الفوتوغرافي"، ليُتجه في أعماله أخيراً نحو "فن مفهومي" (conceptual art) تمثّل فيه الفوتوغرافيا وسيطاً لتنفيذ الفكرة. هكذا، لم تعد الفوتوغرافيا إلا وسيطاً كما لاحظنا في عمله Exit (مخرج - 2006). قدّم ساييلا في "مخرج" سلسلة صور تظهر أيدي مسنّة (التقطها في مستشفى في أيرلندا)، عُرضت عبر "البروجيكتر" على جدار أبيض في الليل. بدت تجليات الأيدي مثل منحوتات من شغل الزمن، ووثائق لها إحالات اجتماعية وطبقية. وهو عمل صادم وقاس يخرج على الشغل الجمالي الذي رسم عمله منذ البداية.

لكنّ "إشكاليته" الكبرى تبقى مدينته القدس التي يعدّ حقائبه لمغادرتها إلى لندن لإكمال دراسته، أو لآته وصل إلى شعور بأنّ "مدّة صلاحيته" انتهت في هذه المدينة التي أقنعنا أنّها الآن في المنفى! "القدس في المنفى" فكرة مشروع جديد يعمل عليه ساييلا، بالتعاون مع كاتب هذه السطور، تُسقط مفهوم المنفى على المكان، وتذهب إلى تقصّي "صورة القدس" في المخيلة الفلسطينية والعربية أيضاً. يطلب "القدس في المنفى" من جميع من يمنعهم

الاحتلال من بلوغ القدس، أن يسجّلوا أول صورة تتبادر إلى أذهانهم عند ذكرها، ويرسلوها بالايمل إلى موقع المشروع (www.jerusalem-in-exile.net). وسيجوّل ساييلا الوصف إلى صور فوتوغرافية. ومن المفترض أن تمثّل التجربة نواة مشروع مستمر لدراسة صورة القدس. تلك الصورة الإشكالية المحمّلة برمزيات الجغرافيا المقدسة كلّها، وبحيوات ضائعة وزفرات منطقة بأسرها ... صورة القدس المحمّلة أيضاً وأيضاً بفولكلور هائل من الخطابة والشعارات؛ فيما الاحتلال يوغل في هوسه بالاستحواذ عليها، شبيهاً بجرذ ضخم يقضم أصابع طفلة نائمة، وهو يغني لها بصوت عالٍ "أورشليم من ذهب!!".